

الوسائل العملية لإصلاح قسوة القلوب (٢) المشارطة والمجاهدة

أ.د. صلاح سلطان

المستشار الشرعي للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

في مملكة البحرين

تقديم

الحمد لله بيده مفاتيح القلوب، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صاحب الحوض المورود، وعلى صحبه وآل بيته وأتباعه إلى اليوم الموعود، وبعد ،،،،

فهذا هو العدد الثامن عشر من سلسلة «قضايا اجتماعية

وإسلامية» يكمل لنا فيه المشوار إلى إصــلاح القـلـوب الأسـتـاذ الدكتور المستشار صلاح الدين سلطان بوسائل عملية تؤثر في أغـوار النفس البشرية وتستلهم الهمم الذكية كي يتخذ الإنسان التدابير العملية، لساعة الفصل يوم نقف فيها بين يدي خالق هذه البرية، ليس لنا سفن إليه إلا هذه

القلوب الحية بالإيمان سليمة من الكفر والفسوق والعصيان، ونسأل الله أن يشرح صدورنا وأن يطهر قلوبنا حتى نلقاه راضيا عنا.

والله ولي التوفيق...

عبدالله بن خالد آل خليفة

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

شوال ١٤٢٩هـ

مقدمة

الحمد لله علاَّم الغيوب، مصرِّف القلوب، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأخيار ومن تبعهم إلى يوم الدين، أما بعد ،،،،

فإذا كنا قد بسطنا القول في الجزء الأول في أول خطوات إصلاح

القلوب وهي التوبة تخلية وتطهيرا لأوعية القلوب قبل تحليتها بصبغة الله تعالى، فإن هذه الدراسة تبدأ في عرض الخطوتين التاليتين وهما المشارطة والمجاهدة، وستلحقها إن شاء الله دراسة عن المحاسبة والمعاقبة، لنصل إلى قوة التحكم في الهوى وتحقيق عناصر التخلية الأربعة التي ذكرها الإمام الغزالي

حجة الإسلام في كتابه إحياء علوم الدين.

وقد اجتهدت في التعرض لهذا الموضوع من خلال المدارسة والمعايشة معا، فبدأت مشوار المشارطة بضرورة الخلوة بين العبد وربه، ينتصف فيها من نفسه، ثم يستنصح صديقا حكيما حميما، ويستشير أطباء القلوب

من العلماء والدعاة الربانيين، ثم بيَّنت كيف يتدرج المسلم عمليا في هذه المشارطة خطوة تلو الأخرى لينتقل من أصحاب الشمال إلى أصحاب اليمين أملاً في الوصول إلى المقربين. ثم وقفت عند معوقات تحقيق المشارطة سواء كانت نفسية أو خارجية، وانتقلت إلى الحديث عن المجاهدة وأهميتها، والوسائل

العملية لكيفية مجاهدة النفس.

والأمل أن يعيش كل قارئ معي أهمية إصلاح قلبه كخطوة أولى لإصلاح ما حوله، ولتحقيق هدف سامٍ لمن أراد أن يقدم على ربه بقلب سليم من العلل والآفات؛ مما يرجى بإذن الله أن نصل إلى رضا الله والسكنى معا في أعالي الجنات.

والله ولي التوفيق...

أ. د.صلاح الدين سلطان

واشنطن ١٥شوال ١٤٢٩ هـ

المطلب الأول: المشارطة
نماذج عملية ومعوقات فعلية

مدخل:

إذا كانت التوبة تقوم بدور التخلية وتفتح للقلب مع اللّٰه تعالى آفاقا جديدة، وأنوارا مديدة، فإن المشارطة هي التحلية التي تملأ هذا الفراغ، حتى يصل المسلم أو

المسلمة إلى صبغة اللّه التي قال فيها سبحانه: ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾ (البقرة : ١٣٨).

وإنني أنصح نفسي وإخواني وأخواتي قبل الدخول في المشارطة والمجاهدة والمحاسبة والمعاقبة أن يراجع كلٌّ منا نفسه بأن يأخذ أحد الخطوات التالية أو كلها حتى

يعرف جوانب تقصيره وضعفه العام والخاص، فإن الشيطان يزين للإنسان دائما أنه يحسن صنعا، كما يقول سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف : ١٠٣،١٠٤)، وقال تعالى على لسان فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا

أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾
(غافر : ٢٩) ، بل رمى سيدنا موسى
عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه يريد أن: ﴿ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ
أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾
(غافر : ٢٦). فلا بد من معرفة
مناطق القوة في النفس لاستثمارها ،
وجوانب الضعف لعلاجها .

أما عن هذه الخطوات فهي :

١- خلوة مع الله : من الأهمية

أن يخلو كلٌّ إلى ربه، سواء في بيته أو مسجده أو اعتكاف في المسجد الحرام أو النبوي يراجع فيها الإنسان نفسه، قال الإمام علي رضي الله عنه: « للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرمُّ معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل» (شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني،

٤٠٦/٥)، بشرط أن يكون صادقا مع نفسه، «فالشجاع من انتصف من نفسه» كما قالت العرب، مبتعدا عن محظورين لا يقل أحدهما خطورة على النفس هما: جَلّد الذات أو تورّم النفس، فالأول لا يبصر نِعم اللّه عليه فيرى نفسه لا يصلح لشيء، بينما الآخر يرى نفسه صاحب الفضل، عديد المواهب، يحمل

كِبرا تكفي منه مثقال ذرة ليُكب
على وجهه في قعر جهنم - والعياذ
بالله - والوسط من كل شيء أعدله،
والإنسان على نفسه بصيرة، ولا
يغرنَّك ثناء الناس علمك بحالك،
ولا يهزمنَّك إجحاف من حولك بك
لتفقد الثقة في نفسك، كن قاضيا
عادلا في محاكمة نفسك إلى أصول
القرآن والسنة، وهي معايير الخير

كله، دون حرج ولا شطط ولا مشقة للنفس تخرج عن خصائص هذا الدين الحنيف.

٢- استنصاح الحكماء من الأصدقاء: من تتمة معرفة مراجعة النفس استنصاح الصديق الحميم الحكيم، فربما لا يعرف الصديق العام كل نقاط القوة والضعف في الإنسان، أما الصديق

الحميم فهو أوعى الناس بهذه الجوانب وأكثرهم إحساسا بك، وإخلاصا لك، وإشفاقا عليك، ومرآتك الناصعة كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن رَسُولِ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ»

(سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في النصيحة، ١٣/٢٦٠)، تسأله بحق أن ينصحك: أيــن مــواطــن؟ قـوتـك وضعفك، وأساليب استثمارها أو علاجها، والمثل يقول: «صديقك من صَدقك لا من صدَّقك»، خذ نصائحه بكل جدية؛ لأنها صدرت من مخلص ذي بصيرة، وبئست النصيحة هي إن جاءت من حاقد جاهل!.

٣-استشارة العلماء والدعاة الربانيين: إذا احتاج الأمر فالجأ إلى أطباء القلوب من العلماء والدعاة بشرط أن يكونوا ممن يجمعون بين الحجة الشرعية والخشية القلبية، أصحاب بصرٍ وبصيرةٍ، يجمعون بين العلم والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبين الإشفاق والحزم في مساعدة

الإنسان على استئصال زوائد الشر فيه واستثمار جوانب الخير فيه، تقواهم في القلب وذكاؤهم في العقل تجعلهم من أصحاب التوسُّم والفراسة، يكشفون فيك جوانب الخير، ويدركون أن نورا قد زاد أو قل في وجهك. ولن يعدم السالك إلى الله فرقانا في قلبه، أو نصيحة من شقيق دربه، أو توجيها من عالِم

سابق إلى الخيرات بإذن ربه.

وسوف أبيِّن فيما يلي معنى المشارطة ونماذج عملية، ثم معوقات فعلية.

أولا: معنى المشارطة:

المشارطة: صيغة مفاعلة من شارط أي وضع التزاما على نفسه لفعل أو ترك شيء، وهي حوار داخلي بين الإنسان ونفسه معاهدا ربه سبحانه

وتعالى على أن أداء الواجبات والمندوبات، تاركا المحرمات والمكروهات، فالمشارطة كأنها عهد وميثاق على أداء شعائر وعبادات، ومناسك وأخلاقيات يلتزم بها العبد حتى الممات.

ثانيا: نماذج عملية من

المشارطة العامة:

المشارطة العامة تعني أنها لا تختص بمسلم دون غيره، فهي مقررات عامة يجب أن نلتزم بها لنحمل خصائص الإسلام، وصبغة الربانيين، ولقد حرصت حتى نكون عمليين أن أقدم صورة متدرجة في هذه المشارطة العامة واحدة تلو الأخرى على النحو التالي:

١) أن يعاهد المسلم ربه، ويشترط على نفسه أن يـؤدي الصلوات الخمس أول وقتها لا يترك أو يتأخر في أداء واحدة منها ، ليحقق عمليا الحديث الـذي رواه الإمـام أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قـال: أوصـاني رسول الله ﷺ فقـال: «لا تشرك بـالله شيئاً وإن قتلت وحرقت» (مسند الإمام أحمد، ٦/٣١٦) ،

والحديث الذي رواه مسلم بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ (أَوِ الْعَمَلِ) الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ»

(صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان أفضل الأعمال، ٢/٦٣).

٢) فإذا طاوعته نفسه بعد مجاهدة أن يصلي الصلوات الخمس في وقتها فليحرص على أدائها في

المسجد، عملا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (التوبة : ١٨)، ولقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة : ٤٣). و لما ورد في صحيح مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَداً مُسْلِماً فَلْيُحَافِظْ عَلَى

هؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ»

(صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب صلاة الجماعة، ١٢٨/٥)، **فيشترط المسلم على نفسه** أن ينتقل من زيارة المساجد إلى عمارتها.

٣) فإذا ما أكرمه الله في الحفاظ على الصلاة في المسجد فلينتقل إلى النوافل للحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن عائشة ـ

رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَمَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» (مسند الإمام أحمد، ٧/٣٦٥).

٤) ثم ينتقل إلى تذوق حلاوة الصلاة بالليل فيشترط على نفسه أن يصلي مرة في الاسبوع قياما في جوف الليل ثم يتدرج حتى يكون في كل ليلة، فينتقل من القائمين الليل،

إلى القوامين بالليل، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

٥) أن يشترط المسلم على نفسه ألا يخرج من صلاة فريضة أو نافلة حتى يخشع قلبه وتدمع عينه، للحديث الذي أورده الهيثمي بأن

العَبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ الله ـ تَبَارَكَ وَتَعالى ـ، وعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ » (مجمع الزوائد للهيثمي، كتاب الجهاد، باب الحرس في سبيل الله تعالى، ٥/٥٢٤)، **فيشترط ذلك مرة في الأسبوع ثم يتدرج فيكون**

مرة في اليوم ويجتهد في المشارطة حتى يصل إلى بكاء في كل صلاة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ (الإسراء:١٠٩)، وقوله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ (مريم: ٥٨).

٦) من كان لا يؤدي الزكاة ثم أدرك فرضيتها وضروريتها للنجاة من عذاب الله والفوز برضا الله

وإدخال البسمة على عباد الله، واستثمار المال في الدنيا والآخرة في نماء مستمر عند الله، فإنه يشترط على نفسه أولا أن يخرج الزكاة من كل مال رزقه الله إياه.

٧) فإذا ما وقف الإنسان على هذا الكم الهائل من الحث على الإنفاق فوق الزكاة في مائة موضع في القرآن الكريم، فضلا عن الأحاديث الوفيرة

في هذا الأمر، فيتخذ المسلم الرباني قراره مشترطا على نفسه أن ينفق فوق الزكاة من كل ما يرزقه الله عز وجل. ولتكن نسبة أخرى تزيد عن ٢,٥٪ أو ٥٪، كل حسب جوده والحاجات المتجددة حوله.

٨) فإذا ما قدر على نفسه في هذه النقطة فإنه يعاهد ربه أن يزيد في العطاء، ويكثر من السخاء في كل

ما أفاء الله عليه، فقد ينفق شيئًا يحبه كله أو نصفه أو ثلثه، ويهرع إلى الوصية قبل موته ليستمر مداد الخير في حياته وبعد مماته، ويكون بهذا قد وصل إلى دلالات هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً﴾ (البقرة : ٢٧٤)، ثم يصير الإنفاق له ديدناً وخلقا ثابتا في كل وقت وحين.

٩) من كان لا يصوم رمضان فعلم أن اللّٰه كتبه على المؤمنين، وأن: «مَن أفطرَ يوماً من رمضانَ من غير عُذْرٍ ولا مَرضٍ لم يَقضِهِ صيامُ الدهرِ وإنِ صامَه» (كما قال الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ١٦٦/٤)، **فشرح** اللّٰه صدره للصيام فليشترط على نفسه أن يصوم مع الصائمين،

وأن يقضي ما فاته على مرِّ السنين عساه أن يستدرك ما فاته قبل أن تغشاه المنون.

١٠) فإذا ذاق حلاوة صيام الفريضة وهامت نفسه إلى مزيد من القربى إلى اللّه، للحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرةَ رضي اللّه عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يقول اللّهُ عز وجلَّ: الصَّوم لي وأنا

أجزي به» (صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول اللّه تعالى يريدون أن ..، ١٥/٤٣٢)، وأحبَّ أن يباعد نفسه عن النيران، للحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ (رضي اللّه عنه) قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَن صامَ يَوماً في سبيلِ اللّه بَعَّدَ اللّه وَجهَهُ عنِ النارِ سبعينَ خَريفاً» (صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل الصوم،

١٣٣/٦)، فإنه يتدرج في المشارطة من صيام الست البيض إلى ثلاثة أيام كل شهر، ثم يصوم الاثنين أو الخميس من كل أسبوع، ثم اليومين معا، فإن آنس من إيمانه قوة، ومن نفسه عزيمة على الخير فلا يحرم نفسه من صيام داود، عسى أن يُكتب من أوائل من يدخل الجنان من باب الريان.

١١) من كان منقطعا عن القرآن فقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام : ٢٦)، ويجد آية المزمل لا تعذر أحدا في انقطاعه عن القرآن سواءً كان تاجرا أو مريضا أو محاربا، فلابد أن يتواصل يوميا مع القرآن، ويتخذ قراره مشترطا على نفسه أن يستمر

حياته مع القرآن فيبدأ بنصف
جزء قراءة يوميا فهي لاتحتاج منه
أكثر من ربع ساعة تقربه إلى ربه،
وتجلي الصدأ عن قلبه، وتفتح آفاق
عقله، وتبعث الراحة والانشراح في
قلبه، فإذا ذاق حلاوة القرآن رفع
المشارطة من نصف جزء إلى جزء
كامل يوميا ثم يتدرج ليختمه كل
أسبوع مرة.

١٢) من أراد أن يكون ربانيا وقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران : ٧٩)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(الأعراف : ١٧٠)، فإنه ينتقل من القراءة إلى المدارسة، ومن التعلم إلى التعليم؛ ليحظى

بهذا الشرف، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن عثمان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**خيرُكم من تعلم القرآن وعلمهُ**» (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم.....، ١٠/٩١)، **فيفتح بيته لحلق القرآن لقوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾** (يونس: ٨٧)، **وينتقل بين المساجد**

والبيوت حاملا كتاب الله، ويُمسِّكه عباد الله ويتدارس معهم الآيات، عسى أن ينال الرحمات، وتغشاهم المغفرة وتحفهم الملائكة ويذكرهم الله فيمن عنده. فيشترط على نفسه ألا يغيب عن حلقة القرآن سواء كانت يومية أو أسبوعية، حتى لا يفوته هذا الثواب الجزيل.

١٣) إذا أراد مزيدا من الارتقاء

فليعش مع القرآن آية آية، ومقطعا مقطعا، وسورة سورة، بالعقل تفكرا، وبالقلب تدبرا، وبالنفس تغيرا، فيطاوعه القرآن إلى أرقى المعاني، ودرجات المثاني. فيشترط على نفسه أن يمر على القرآن بدرجات متعددة من التفسير والتدبر، فعنده ختمة يقف على الغريب من كلمات القرآن، ثم ينتقل إلى ختمة ثانية

يعرف معها أسباب النزول، وختمة ثالثة يعرف معها الأحكام الفقهية في القرآن، وختمة رابعة لمعرفة قصص القرآن، وختمة خامسة لأمثال القرآن، وختمة أخرى ربما تستغرق العمر كله، كما يقول أحد الصالحين: (لي ختمة بدأتها منذ عشرين عاما لم أنته منها بعد)، ولعلها المعايشة مع كل آية أو آيات

ذات فكرة واحدة، أو موضوع واحد يذوق معها فيوضات ربانية، فيفتح الله عليه فتوح العارفين ويتحفه بمنازل الراسخين.

١٤) من كان قاطعا لأحد من أبويه أو أقاربه أو أرحامه أو جيرانه فسمع في خطبة أو درس أو برنامج الحديث الذي رواه مسلم بسنده أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَال: «لاَ يَدْخُلُ

الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ» (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، ١٦/٩٧)، فيتوب إلى الله، ويشارط نفسه أن يكون أبر الناس بأبويه، وأوصلهم لأرحامه، وأكرمهم لجيرانه، وأوفاهم لأصدقائه، فيقرر أن يقوي هذه الصلات، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ (الرعد : ٢١) ، فيسارع أولا إلى أبويه ثم أرحامه وجيرانه وأصدقائه بالسؤال والهدية والزيارة والمكالمة والمشاركة في الأفراح والأتراح، آملا أن يصل إلى أن يكون من أقرب الناس إلى الرسول ﷺ في الجنة.

١٥) فإذا ما بدأ مشواره مع البر والصلة والوفاء فوجد صدودا

وإعراضا من بعضهم، وربما أذىً من بعضهم الآخر، فليتذكر أن اللّٰه يريد أن يصطفيه لينتقل من منزلة أصحاب الفرض إلى أهل الفضل، ومن درجة الإيمان إلى الإحسان، لتفتح له أبواب الجنان الثمانية:
﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي

السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٤،١٣٣) ، وهنا يشارط نفسه أن يظل باراً وصولا وفياً مهما استدرجه الشيطان بأي أذى أو قطيعة من أهله أو أصدقائه، متذكرا الآية: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا

فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان : ١٥)،

وحديث البخاري بسنده عن النبي ﷺ : «ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكنِ الواصلُ الذي إذا قُطعَت رحمهُ وَصلَها» (صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، ١٢/٣١)، والحديث الذي أورده الهيثمي بسنده وعن أبا

ذر رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ أن لا تأخذني في الله لومةُ لائمٍ، وأوصاني بصلة الرحم وإن أدبرَتْ» (مجمع الزوائد للهيثمي، كتاب الأدب، باب صلة الرحم وإن قطعت، ٢٨٢/٨).

ولتكن هذه القاعدة الذهبية جزءا من حياتك : «**إذا عاملتَ الحق فأخرج الخلق، وإذا عاملتَ الخلق فأخرج النفس، وإذا عاملتَ النفس فأخرج الهوى**».

١٦) من عاش زمانا غافلا عن كفالة الأيتام ومخالطة المساكين، ثم جاءته إفاقة إلى الرحمن عندما سمع آيات القرآن:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة : ٢٢٠)، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي

يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ (الماعون : ٢،١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة : ٣٤،٣٣). فيقرر أن يخرج عن صفات أصحاب النيران، إلى أن يكون جزءا من مشاريع كفالة الأيتام ورعاية الفقراء والمساكين، باذلا وقته وجهده وماله لمشاريع البر والإحسان، طامعا أن يكون ملاصقا

للحبيب ﷺ في أعالي الجنان ، كما روى البخاري بسنده عن سهل رضي اللّه عنه عن رسولُ اللّه ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنةِ هكذا، وأشارَ بالسبابة والوُسطى وفَرَّجَ بينهما شيئاً» (صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان، ١٠/٥٥١) ، **فيشارط** الأخ نفسه أن يقتطع جزءا ثابتا من رزق اللّه له، وجزء آخر من وقته

لتعويض الأيتام عن حنان أب أو أم فقدوه، وحب ورعاية يتلمسونها بين الأبرار من عباد اللّه من كلمات ولمسات ونسمات يغدقون عليهم الحب قبل أن يغدقوا عليهم المال، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، فقد يكون اليتيم غنيا مالا، مسكينا حبا وحنانا، فيحتاج إلى من يتعهده بدفقات حب، ومشاعر ود

تملأ حياته رضا، وتستل سخيمة الحــرمــان، والـشـعـور بالنقص والخذلان، **مما قد يتطور إلى شعور** بأنه ضحية؛ فينقلب مجرما يعتزل أو يعادي كل إنسان.

١٧) وأحسب أن لذة مخالطة هؤلاء الأيتام والمساكين، وتفريج كربهم وقضاء حوائجهم، وسد خُلّتهم، وإطعام جائعهم، وتعليم جاهلهم،

وكسوة عاريهم، وإدخال البسمة والفرحة عليهم، هي جنة في قلب أصحاب البر والإحسان، فتدفعهم إلى مضاعفة ماشارطوه على أنفسهم من قبل، والاستمرار في القرب من هؤلاء لينتقلوا بحق من حب العطاء إلى عطاء الحب.

١٨) من تعود على قراءة الكتب والاستماع إلى الدروس والخطب

والمحاضرات والبرامج التلفزيونية والإذاعية حتى صار مخزناً للمعلومات ثم استحضر قلبه مع آيات البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(البقرة : ١٥٩)، **فخاف قلبه، ووجِل فؤاده، وارتعش جسمه من هول الموقف يوم القيامة، عن علم كتمه، ونصيحة مضغها، ومشورة حبسها، ثم تطلعت نفسه إلى منازل الدعاة المصطفين الأخيار، الذين قال الله تعالى فيهم:**
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
(فصلت : ٣٣). **هنا ومع هذا الانفعال**

وهـذا الـوقـت الـطـيـب مـن عـودة النفس إلى نقائها، والفطرة إلى صفائها، يتخذ المسلم أو المسلمة القرار المصيري أن ينتقل من التعلم إلى التعليم، ومن جمع المعلومات إلى الإفضاء بها لمن حوله سواء بنصيحة أو حوار أو كلمة في مجلس أو في حفل طعام أو مجلس عزاء، ولا ينتظر أن يأتيه الناس بل يأتي

مجالسهم ويشترط على نفسه أن يُبلِّغ كل ما علمه، فإن عجز لسانه عن الفصاحة والبيان، فلا أقل من أن يتبرع بمال ينشر به علماً أو يساعد عالماً في نشر علمه عبر الإنترنت أو الفضائيات، أو يرتب له برامج في أماكن شتى، فيكون قد بلَّغ بنفسه أو بغيره. هذه المشارطة جَدُّ ضرورية وإلا ذهب الإيمان كله ولم

تبق منه حبة خردل، لما رواه مسلم بسنده أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ» (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان،٢/١٩).

١٩) إذا كانت حياة الإنسان مع الأفلام والمسلسلات والإعلانات

والمباريات، ومتابعة آخر الموضات في الملابس والهواتف والسيارات، منصرفا عن هموم أمته وحاجات مجتمعه، ومواجهة الذين يسيئون عمدا إلى الله تعالى ورسوله وأصحابه، ثم رزقه الله البصيرة أن هذه كلها استدراج وإغراء على طريقة: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

(فصلت : ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (لقمان: ٦)، واستشعر تقصيره في حق أمته ووطنه ومجتمعه، عندما استوعب ما أورده الجلال السيوطي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ لاَ يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لاَ يُصْبِحِ

وَلاَ يُمْشِي نَاصِحاً لِلّٰهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلإِمَامِهِ وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ» (جامع المسانيد والمراسيل، الإكمال من الجامع الكبير، ٧/٤٠٦) ، **فيشارط** نفسه ويعاهد ربه أن يأخذ جزءًا من هذا الوقت لمتابعة أخبار بلده وأمته في فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال وكشمير والشيشان و....، ويتابع ذلك من خلال نشرات

الأخبار وتحليلات المفكرين، ويبادر إلى المشاركة في الجمعيات الخيرية ومؤسسات المساندة والإغاثة وردِّ الشبهات عن الذين يسيئون إلى الله ورسوله وكتابه ورموز أمتنا وشموخ حضارتنا، فيعطي من وقته وقلبه وعقله وماله وخبرته لهذه الهموم الجسام، التي لا تستهوي إلا الأفذاذ الكرام من عباد الله تعالى.

ثالثا: نماذج عملية من المشارطة الخاصة:

جاءني أحد الشباب من عُمّار المسجد ورواد حلقات العلم ومن أصحاب الدعوة إلى اللّه يشكو حوارا حادا بينه وبين زوجته، أفضى به إلى غضب وسب ثم طلاق، فبادرتُه بقولي: «إن عندك زايدة وتحتاج إلى جراحة لاستئصالها»، فرد

مستغرباً وقال: « لقد استأصلتُ الزائدة منذ سنوات طويلة »، قلت له: «عندك زائدة غضبية تحتاج أن تستأصلها كما استأصلتَ الزائدة الدودية عندما شَعرت بالألم فذهبَت للطبيب، لكن الفارق الجوهري أن طبيب الجسم يطاع إذا أمر بإيقاف كل شيء في حياة الإنسان قبل أن تنفجر الزائدة

الدودية، ويرقد في المستشفى أياما ويُغيَّب عقله وهو مناط التكليف، وتُفتح بطنه وهو أمر مؤلم، وتقتطع الزائدة وهو أمر شاق، ويلتزم المريض بالتعليمات الدقيقة في الحركة والطعام حتى يتعافى تماما». لكن الدعاة والمربين وأطباء القلوب إذا علموا أن هناك زائدة لا أخلاقية عند أحد، فطلب منه

أن يقوم لصلاة فجر ليداوي قلبه، وأن يعتكف أياما في المسجد ليعالج روحه، ويلتزم بورد من القرآن ليرقى إلى ربه، أو أن ينفق مالا في مصرف بِر ليزكي نفسه، أو يقرأ كتب علم ليشحذ عقله، أو يصاحب الصالحين ليضاعف رفده، في العادة أن استجابة الناس لإصلاح قلوبهم لا تساوي بحال استجابتهم

لإصلاح أجسادهم وذاك أمر يجب أن ينتهي، بأن نصغي للربانيين الخبراء في أمراض القلوب والنفوس لاستكشاف العلل الخاصة بكل فرد دون غيره، فإذا جاز لي أن أسميها زائدة غضبية يثور ويفور صاحبها لأتفه الأسباب الشخصية، بينما تجده بليدا هامدا نحو هموم دينه أو أمته الإسلامية، أو زائدة

كلامية في اللسان تؤدي إلى اللغو والغيبة والنميمة والبهتان، والهمز واللمز والسب والطعن واللعن وشهادة الزور، أو زائدة جنسية لا يتعفف عن الحرام ولا يكتفي بالحلال، ولا يفكر إلا في تصريف شهواته وتبديد طاقاته، أو زائدة نفسية (الكِبر) فيرى نفسه قبل غيره، ويتعالى على أقرانه، ويحتقر

قومه، ولا يرجع إلى حق مهما سطع
نور الصواب، ولا يتوقف عن خطأ
مهما ذُكِّر من الأهل والأصحاب، أو
زائدة شرهِية إلى الطعام، فإن أكل
لفَّ وإن شرب اشتف، يجوع كلما
وجد طعاما أمامه ولا يشبع، ويأكل
على كل الموائد ولا يقنع، ويتفنن في
أصناف الطعام والمشارب، وكأنه
يعيش ليأكل، أو زائدة بطشية في

اليد تطيش في الحرام مأكلا، وفي سرقة المال خلسة، والاعتداء على الضعفاء ظلما، والانكماش أمام الأقوياء ضعفا، والفرار أمام الأعداء هلعا، أو زائدة بصرية في النظر إلى الحرام لا ترتفع عينه عن سائرة، ولا يغض بصره عن فاجرة، ولا يترفع عن الأفلام العاهرة.

وفيما يلي أعرض جدولا فيه بعض

أنواع الزوائد المرضية و«روشتة» العلاج من خلال المشارطة الخاصة بكل فرد على حدته:

روشتة العلاج	نوع المرض القلبي
الوضوء دائما – إعادة الوضوء عند الغضب – سرعة الفئ – الاعتذار بلطف وأدب لمن آذاهم الغضب – الحرمان يومين إلى أسبوعين من طعام تحبه (كلي أو جزئي) – التصدق بشيء تحبه كلما غضبت – قراءة سيرَ الحلماء .	(١) الزائدة الغضبية

روشتة العلاج	نوع المرض القلبي
المشارطة بترطيب اللسان بأوراد من الأذكار والورد القرآني - مذاكرة كتب العلم الشرعي أو الدنيوي – استحضار «اللّه يسامحك» عند كل إساءة بدلا من اللعن والسباب – التوقف عن الكلام فيما ليس تحته عمل – الحرص على الاعتذار السريع لمن أسأنا إليهم لتخفيف أوزار اللسان وهزيمة النفس في هذا الميدان -التعود على الصمت والاستماع ضعف الكلام.	(٢) الزائدة الكلامية

روشتة العلاج	نوع المرض القلبي
المجاهدة الشديدة في سد وإغلاق مقدمات الإثارة بدءً من النظر ومشاهدة أو سماع الأفلام أو الأغاني المثيرة - مقاطعة الجلسات المختلطة ذات النكات والفكاهات والإشارات الجنسية - فتح علاقات جديدة مع ذوي العفة والنقاء - الزواج المبكر - كثرة الصوم فإنه وجاء - قلة التفكير في العلاقة الخاصة قدر الوسع - التخفيف من أكل اللحوم الحمراء والأطعمة المثيرة للرغبة- التريض وإجهاد النفس بمشاريع خيرية لنفع المجتمع.	(٣) الزائدة الجنسية

روشتة العلاج	نوع المرض القلبي
زيارة الفقراء والأيتام والمساكين – المشاركة في خدمة الآخرين عند الاجتماعات – التراجع عن الخطأ والاعتذار عنه – أن يوطن نفسه على اكتشاف جوانب الخير في الناس، وعيوبه الذاتية.	(٤) الزائدة النفسية (الكِبر)
الصيام ثلاثة أيام في الشهر، ثم يوم في الأسبوع، ثم الاثنين والخميس – العزم على ترك بعض الطعام مع اشتهائه – الحرص على الصحي لا الشهي من الطعام.	(٥) الزائدة الشرهِية

روشتة العلاج	نوع المرض القلبي
العزم على التفاهم بالحوار واللسان لا باليد والسنان – تذكر الحديث: «واليد تزني وزناها البطش» – طلب القصاص ممن ظلمناهم أو العفو.	(٦) الزائدة البطشية

رابعا: المشارطة - معوقات فعلية وحلول عملية:

هناك أفكار تعشش في الرأس، وتخيِّم على الفؤاد، وتشوش على

القلب، وتتحول كأنها طبقة سميكة مثل الران أو الصدأ الحاد الذي يحجب أنوار الرؤية الصحيحة لكل شيء حتى قدرات الإنسان ذاته، وفيما يلي بعض هذه المعوقات التي قد تحول بين الإنسان وتجديد حياته مع اللّٰه من خلال مشارطة مُلزمة تغير مسارات الإنسان:

١ - اعتقاد أن الإنسان لا يطيق التكليف:

هناك الكثير من الناس ترسخ لديه من وساوس الشيطان ونزغات الهوى، أنه لا يستطيع أن يطبق التكليف الرباني، وفي القرآن إشارات كثيرة لهؤلاء، منها قصة الملأ من بني إسرائيل عندما تولَّوا لما كُتب عليهم القتال وشربوا من

النهر لما طُلب منهم ألا يشربوا منه إلا غرفة بيد، ومن هؤلاء من قال عند القتال: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ﴾ (البقرة : ٢٤٩)، لكن النتيجة أن القلة الصامدة الصابرة هزمت جالوت وجنوده، وأثبتت للمنهارين نفسياً أن النصر مع الصبر، والنجاح مع الجَلَد، ثم إن المسلم أو المسلمة يجب أن يعتقد

ـ بحق ـ أن اللّٰه تعالى لن يكلف من خلال آياته أو هدي نبيه إلا ما يطيقه الإنسان لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ (الطلاق : ٧)، وقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة : ٢٨٦)، وقوله تعالى: ﴿مَا

يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (المائدة: ٦)، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة : ١٨٥)، بل إن الآية الجامعة التي يجب أن يعتقد بها كل من يؤجل المشارطة لإصلاح قلبه متوهماً عدم قدرته على تحمل التكاليف الربانية أحب

أن يصغي إليها متدبرا بعقله، متأثرا بقلبه، متغيرا بنفسه، حيث يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ (النساء : ٢٨،٢٧)، وإنني أجزم من خلال معايشة حقيقية

لمجتمعات شرقية وغربية أن الأخف والأيسر على الإنسان أن يتبع الشرع الحنيف، وأن الشقاء والجفاء والعناء في البعد عنه. فمن اعتدل في النفقة ولم يسرف وأكل من كدِّ يده قد يتعب قليلا لكنه أفضل ألف مرة ومرة من المسرفين الذين يقترضون لإشباع رغبة عاجلة فتتراكم

عليهم الـديـون، ويتـحـول إلى صاحب هـمٍّ ثقيل بالليل، وذل كسير بالنهار. والمـرأة عندما تـتـزوج تـأخـذ وقـتـا في التعرف علـى طبـاع زوجـهـا وخلجاته وملكاته، ومع الوقت تكون أهدأ طبعا وأنـقـى نفسـا، غـير المـرأة التي تجتهد في استرضاء رجل كل يـوم. والجـهـاد رغـم مشقته

وتضحياته يورث العزة والكرامة، ويحرر الأرض، ويصون العرض، ويحمي المقدسات، ويورث الهيبة، ويحفظ البيضة، هذا أخف من مضغ الذل وانكسار النفس، وقبول الهوان، واستعباد الإنسان، وهتك الأعراض، وسلب الأراض، وإهانة الكرام، وتطاول اللئام، وتحمل الأفراد والجماعات

والــدول مسؤوليتهم في قبول الجهاد وحسن الاستعداد لمنازلة الأعداء، أيسر قطعا مما نعيش فيه الآن، كما قال الشاعر:

لا تسـقني مـاء الحيـاء بذلـة

بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

وأفضل مـا تستريح إليـه نفس المؤمن في أشد التكاليف الشرعية عليه ، قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ

الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢١٦).

٢- اعتقاد أن الإنسان إذا بدأ لن يكمل وسيعود على عقبيه: بالتالي من الأفضل

أن يستمر على ما هو فيه، ولا داعي لمشارطة تورث عدم الثقة بالنفس، ولهؤلاء أقول لو أحسن الإنسان الظن بربه، وأقبل عليه بعقله وقلبه، وسأله متضرعا: (اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك)، واستعاذ بالله خاشعاً ألا يحرمه لذة الإيمان بعد أن ذاقها: ﴿رَبَّنَا

لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨)، ويردد هذا الدعاء: (اللهم إني أعوذ بك من السلب بعد العطاء)، وسنجد بإذن الله ربنا عند حسن ظننا، وأنوار الهداية تغمر حياتنا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ

كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد : ٢٨)، أَبَعدَ هذا التأكيد من ربنا الرحيم الودود يخشى الإنسان أن يقبل عليه ثم يتركه في منتصف الطريق!.

٣- التعجل في النقلات والغلو في المشارطات: إذا

كنت أكره المشي البطئ الوئيد
إلى الله حيث أمرنا بالإسراع
والفرار إليه، فإنني أيضا أكره
محاولة خرق القانون الرباني،
أن التدرج من سنن الحياة،
فمن النطفة إلى الطفولة ومنها
إلى الشباب والكهولة، ومن
البذرة إلى النبتة ومنها إلى
الشجرة والثمرة، ومن القطرة

إلى انهمار السيل (أول الغيث نقطة ثم ينهمر)، فالتعجل في تغيير النفس أو إصلاح المجتمع دائما يبوء بالفشل لأنه يخطو بتهور عكس قانون الله تعالى، ولذا لما ولي الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز الإمارة وضع خطة متدرجة لرد المظالم نجح فيها، وكان ولده الشاب يشتد

عليه قائلا: «يا أبت ماذا تفعل إذا لقيت اللّٰه دون أن تكمل رد كل هذه المظالم؟!»، فرد عليه بحكمته الوافرة: «يابني إن اللّٰه تعالى خلق السماوات والأراضين في ستة أيام، وكان سبحانه قادرا على أن يخلقها في لحظة واحدة، وإني أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة واحدة،

فيَدعوه جملة واحدة، أما يكفيك من أبيك أن يحيي كل يوم سُنَّة، وأن يميت بدعة»، وقد أفضى إلى ربه تاركاً وراءه سيرة عطرة تُعبق تاريخ هذه الأمة، فبالتالي لا يمكن أن ينتقل الإنسان من خصائص أصحاب الشمال إلى خصائص المقربين دون أن يأخذ وقتاً يتأهل مع أهل اليمين، ولا

أن ينتقل تارك الصلاة فجأة إلى إقامة الفريضة والنوافل والتهجد في السحر، أو من السفور إلى النقاب، ومن تناول المسكرات وتعاطي المخدرات إلى صيام داود. صحيح إن بعض هؤلاء التائبين بعد انخراطهم في وَحَلِ المعاصي ودياجير الكبائر يريدون أن يعوضوا ما قد فعلوه



من قبل، لكن يكفيهم أن يعلم الله صدقهم وأن يتدرجوا في مدارج السالكين إلى الله رب العالمين.

٤- الصحبة السيئة أو غير المعاونة: إذا كان الإنسان صادقا في التوبة راغبا في العودة فلكل سفرٍ عُدة، والصحبة الصالحة من العُدة الأساسية في

السفر إليه سبحانه لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف : ٢٨)، فالآية تحدد ما يجب تخليةً وتحليةً، فنتخلى عن صحبة غافلة عن

ذكر اللّٰه وتتبع الهوى، ونتحلى بصحبة أصحاب القلوب الحية بالذكر والدعاء بالغداة والعشي، ومما لا شك فيه أن طريقنا إلى اللّٰه لا يصلح بغير إخوان صدق، وأصحاب خلقٍ، وأرباب صبر على إكمال السير إلى اللّٰه؛ حتى ننال جميعا رضا اللّٰه والجنة، وقد كان أبو الدرداء بارعاً عندما

قال: «إنني أعوذ بالله من يوم لا ألقى فيه عبدالله بن رواحة»؛ لأن أخاه عبدالله بن رواحة قد حمل شعار: «هيا بنا نؤمن ساعة»، فكانا إذا التقيا ارتقيا، وعليه فإن المشارطة يجب أن يصحبها عزم على التخلي عن مخالطة أصحاب السوء، والتحلي بالإخوة في الله، وقد رأيت في الواقع أن الالتحام



مع الصادقين، يدفع الإنسان أن يكون صادقا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة : ١١٩)، والاقتراب من العابدين يوشك معه أن يكون الإنسان عابدا، كما أن الاقتراب من العابثين يجعله عابثا، وقد يكون انهيار التائب من التدخين

بسبب ضغوط المدخنين حوله بالإغراء والسخرية، فإن استبدل الصالحين بالمدخنين فسيجد منهم تشجيعاً واحتفاءً أنه غلب هواه وقهر شيطانه وأرضى ربه.

المطلب الثاني: المجاهدة

مدخل

بعد هـذا المطلب السـابق عن المشارطة أرجو أن يكون واضحا جليا أن الكثيرين يستطيعون أن يقوموا بها، وهم مخلصون ينوون أن يتغيروا، ولا نشك في إخلاصهم، لكن هذه المشارطة تتحول إلى رغبات وأمان وأحلام

ما لم تكن مشفوعة بمجاهدة للنفس، تحملها على المكارم حملاً، وتردعها عن السفاسف ردعا، وتوقفها أمام حدود الله حزما، ومع هذه المشارطة والمجاهدة يلزم أن تكون هناك محاسبة، هل أنجزنا ما وعدنا به ربنا حقا، أم تراجعنا عن الوفاء ضعفا ؟!.

هل أرخينا للنفس زمام الهوى، أم ألزمناها لجام التقوى ؟! وهل صرفنا الوقت والعمر والمال والعلم والجهد فيما يرضي اللّٰه أم لا؟! فإن أظهرت المحاسبة إنجازا، حمدنا اللّٰه وطلبنا المزيد وواصلنا الطريق، وإن كان غير ذلك سألنا اللّٰه العون على أنفسنا وعدنا إلى النفس

معاقبة لها، لخذلانها صاحبها عن القيام ببنود المشارطة بين العبد وربه، وفيما يلي سوف أتناول باختصار قضية المجاهدة حيث تعرضنا لها سلفا في كتابي «ثوابت الإيمان بعد رمضان»، وإن كنا نحتاج هنا وفاء بمنهجية البحث، إلى تلخيص مقدماته واقتباس بعض فقراته.

أولا: تعريف المجاهدة:

يمكنني أن أعرِّف المجاهدة بأنها: حمل النفس على أداء الواجبات، والتزام المكارم والمروءات، وترك المحرمات، والترفع عن السفاسف والمكروهات.

ثانيا: أهمية المجاهدة:

تبدو أهمية المجاهدة لنصل إلى إصلاح القلوب مما يلي:

- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)

- كتب أبوبكر الصديق رضي الله عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما استخلفه: «إن أول ما أحذرك منه نفسك التي بين جنبيك».

- قال الإمام علي كرم الله وجهه: «من كرمت عليه نفسه،

هانت عليه شهواته».

- قال ابن القيم: «لا يكون العبد ربانياً إلا بالمجاهدة».

- قال الراغب الأصفهاني: «العلم يُصلح الفكر، والمجاهدة تُصلح الشهوة».

- قال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئاً أشد علي من نفسي».

(إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ٣/٤٤).

- قال الحسن البصري: «ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك» (إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ٣/٤٤).

ثالثا: كيف نجاهد أنفسنا عمليا؟

هناك قواعد عامة وأساليب خاصة تعين على مجاهدة أنفسنا، ولا تغني إحداهما عن الأخرى.

أ) القواعد العامة في مجاهدة النفس:

١- إحياء حب اللّٰه تعالى في القلب حتى يكون حبه سبحانه أرقى من حب النفس والأهل والولد والمال وذلك بالإكثار من النظر في الكون المنظور والكتاب المسطور، ودوام الذكر، والتلذذ بالأوراد الإيمانية من صلاة في

الليل وصيام في النهار.

٢- إحياء الخوف من الله تعالى بمطالعة مصارع الظالمين، ومهالك الفاسقين ومآلات المفسدين، ويقارن الإنسان حاله بحالهم، ويتهم نفسه، ويعظم عنده الخوف على نفسه لكثرة النعم الإلهية، وقلة الأعمال الخيرية، وكثرة الذنوب اليومية،

ويتذكر الموت وسكراته والقبر وظلماته، والحشر وأنّاته، والصراط وسقطاته، والنار ولهيبها، وجهنَّم وسعيرها، والزقوم والحميم والمقامع الحديدية، والصرخات التي تخرج من العصاة وهم في النار يعذَّبون، وفي هذا أورد ابن أبي الدنيا في كتابه «محاسبة النفس»

ص (٣٤) أن إبراهيم التيمي قال: «مثَّلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثَّلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُردَّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قال: قلت:

فأنت في الأمنية فاعملي».

٣- قوة الإرادة والعزيمة على مواجهة النفس بقوة الجناحين السابقين «الخوف والرجاء»، «الرهبة والرغبة» واليقين أن العبد مهما كان ضعفه إذا لجأ إلى ربه واستعان به أعانه، وقد دعا سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الفتنة التي تعرض لها فقال:

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (يوسف : ٣٣)، فصرف الله عنه كيدهن واحتمل بهمة عالية السجن مظلوماً بسبب عِفَّته، وانشغل في سجنه بنشر دعوته؛ حتى كتب الله له الخروج إلى التمكين بتقواه وحسن صبره،

ولعل مما يعين في هذا حديث البخاري الذي رواه بسنده عن أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «فإذا سألتمُ اللّهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوسَطُ الجنة وأعلى الجنة»(صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين، ٦/٨٧).

وأحب أن أُذكِّر نفسي وإخواني

بقول الشاعر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى

فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقول الشاعر:

أبارك في الناس أهل الطموح

ومن يستلذ ركوب الخطر

ومن لا يحب صعود الجبال

يعش أبد الدهر بين الحفر

ومن لم يعانقه شوك الحياة

تبخر في جوها واندثر

وقول الشاعر:

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ب) الأساليب الخاصة في مجاهدة النفس:

هذه الأساليب الخاصة تعتمد على صدق العبد مع ربه ومعرفته بمواضع ضعفه وقوته فلا يضع

نفسه في موضع يعلم أن نفسه تميل مع الهوى وتخالف الرشاد والهدى.

وبناء عليه أحب أن أسوق هذه الأمثلة الخاصة في مجاهدة النفس :

١- من اعتاد على شراب متكرر من الشاي أو القهوة أو غيرهما يلزمه أن يجاهد نفسه حتى لا يكون أسيراً



لعادة، ولذلك يقال: «أفضل عادة ألا تكون لك عادة».

٢- أن تترك بين فترة وأخرى على المائدة نوعاً من الطعام وهو أحب الأنواع إليك، فإنك بهذا تهذب في النفس سطوتها في التلذذ بالمطاعم الخاصة.

٣- إن كان من طبع الأخ أو الأخت الإسراف والتبذير حتى في أبواب

الخير، فيجب أن يجاهد نفسه أو أن تجاهد نفسها في الادخار والتوفير ولو بالقليل، وإن كان عكس ذلك شحيحاً بخيلاً فيجب أن يجاهد نفسه في البذل والإنفاق والتوسعة على الأهل والأقارب والمؤسسات الخيرية.

٤- إن كان من طبع الأخ أنه سريع الغضب بطئ الفيء فيجب أن

يلاحظ نفسه ويتذكر أن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، فإن انفلتت نفسه في غضبة لغير الله تعالى عالجها بالصيام والقيام وعاقبها بالحرمان مما تحب ومن عقوبته لنفسه سرعة الفيء، والمبادرة إلى خصمه لأن «خيرهما الذي يبدأ بالسلام».

٥- إذا كان الأخ يميل إلى

الصمت الطويل حتى إنه ليوغر صدر زوجته التى تنتظر منه كلمة طيبة أو لفتة كريمة بعد طعام، أو حسن لبس، أو جمال هيئة، فيجب أن يجاهد نفسه في الالتفات إلى أن الكلمة الطيبة صدقة وأن من أدخل السرور على أهل بيت من بيوت المسلمين لم يرض الله له جزاءً إلا الجنة.

أما كثير الكلام بطبعه فيجب أن تأتي عليه فترات يجاهد نفسه بحسن الاستماع وقلة الكلام، وضبط اللسان ويتذكر حديث الترمذي بسند حسن صحيح عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال له: «ثَكِلَتْكَ أُمّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ،

إِلاَ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» (سنن الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول اللهﷺ، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ٧/٣٤٨)، **ولعله يعالج نفسه بطول الخلوة وقلة الجولة مع الآخرين، فإن الخلوة تعين على الصمت إلا من ذكر الله أو تفكر في آلائه.**

هناك إخوة وأخوات لا يحبون القراءة ويَملّون من قراءة



فصل في كتاب، وهؤلاء يجب أن يجاهدوا أنفسهم بالبدء في قراءة منهجية بدلاً من القراءات العشوائية لوريقات مبعثرة، فيستكملون بعض الكتب الصغيرة، ثم يتجهون إلى الكتب الكبيرة ويتذكرون أن خير جليس في الأنام كتاب، وأن أصحاب العلم هم شركاء الملائكة الكرام

في الشهادة لله بالوحدانية، لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾(آل عمران : ١٨)، وكذا أورد الجلال السيوطي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «النَّاسُ رَجُلاَنِ: عَالِمٌ وَمُتَعَلمٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَا سِوَاهُمَا» (جامع المسانيد

والمراسيل للسيوطي، المنقطع، ٥/٨).

٧- إذا اعتاد الأخ أن يقود سيارته بسرعة زائدة فليجاهد نفسه بأن يقول هذا الأسبوع لن أتجاوز أبدا، فإن حدث عاقب نفسه بمشيٍ طويل أو حرمان من شراب سلسبيل، أو طعام شهي، أو يتصدق بشيء كأنه دفع نصف مخالفة، لكنه

يقدمها صدقة لباب من أبواب الخير، حتى يعود ضابطاً لنفسه في القيادة مجاهدا لنفسه في جوانب أخرى.

٨- من اعتاد أن يتوضأ لكل صلاة فقط فلينظر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢). وليعاهد ربه أن يلزم نفسه بالوضوء في



كل وقت وحـين، فكلما انتقض الوضوء توضأ سواء للصلاة أو الطعام أو القـراءة أو الخروج حتى يكون دائماً حاملاً سلاح الإيمــان وقــادراً على مواجهة وسـاوس الشيطان، ومستعداً للقاء الرحمن.

٩- من تشبع قلبه واقتنع عقله بفضل عبادة فليتخذ قراره بأن

تكون ثابتاً من ثوابت حياته، مثل صلاة السنن، وصلاة الضحى، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصدقة السر، وأذكار دائمة، لما رواه البخاري بسنده عن عائشةَ ـ رضي اللّٰه عنها ـ أن رسولَ اللّٰه ﷺ قال: « إنَّ أحبَّ الأعمالِ أدوَمُها إلى اللّٰهِ وإن قَلَّ» (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة



على العمل، ١٣/ ٨٣).

١٠- من استهوته شهوة النساء وغلبت عليه فتنة الجمال، وأهواء الإعلانات والأفلام ، فليفزع إلى الصوم فهو الوجاء، وليهرع إلى ملاطفة أهله، وأن يشبع من الحلال أو يبادر إلى الزواج إن لم يكن متزوجاً، ويشغل ليله ونهاره بأعمال تستغرق طاقاته

وهمومه، ولا يدع الفراغ والفكر ليفسد عليه عفته ومروءته.

الخلاصة

١- بعد التوبة تخلية تأتي المشارطة تحلية، وهي عهد وميثاق بين العبد وربه على أداء الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، في خطوات متدرجة حتى يصل العبد إلى صبغة الله.

٢- يلزم في المشارطة أن تبدأ بخلوة مع الله، واستنصاح الحكماء من الأصدقاء، واستشارة العلماء والدعاة الربانيين في تحري جوانب الخير في النفس لاستثمارها، وجوانب الضعف لعلاجها.

٣- هناك مشارطة عامة تبدأ بالفرائض ثم النوافل سواء في

الأمـور التعبدية أو الأخلاقية أو الاجتماعية أو العلمية أو الدعوية حتى يصل الإنسان إلى خصائص الربانيين، تزكية للنفس، وإصلاحا للمجتمع.

٤- في المشارطة الخاصة يلزم معرفة الزائدة المرضية التي يتصف بها كل إنسان عن غيره أو التي تخص إنسانا دون آخر،

فهناك زائدة غضبية عند شخص، وزائدة جنسية عند غيره، وزائدة شرهية عند آخر، وهناك وسائل عملية لعلاج كل زائدة أو استئصالها بشرط أن يُسلِم المريض نفسه إلى أطباء القلوب لمعرفة الوسائل العلاجية وأن يتحمل شيئًا من مشقتها حتى يطهر قلبه، ويزكي خلقه،

وينمي عقله، ويقوي جسده.

٥- للمشارطة معوقات فعلية أهمها اعتقاد أن الإنسان لا يستطيع أن يطبق التكاليف الربانية، أو الخشية أنه إذا بدأ لن يكمل وسيعود على عقبيه، أو الغلو في المشارطات في نقلات سريعة، أو الصحبة السيئة أو غير المعاونة، ولكلٍ حلول عملية

تحتاج إلى صدق التعامل معها.

٦- تبقى المشارطة رغبات وأحلاماً ما لم تكن مشفوعة بمجاهدة النفس لحملها على المكارم حملا، وردعها عن السفاسف ردعا، وتوقيفها عن المحرمات حزما، وهذه تحتاج إلى مغالبة دائمة للنفس حتى يسلس قيادها.

٧- من القواعد العامة لمجاهدة النفس إحياء حب اللّٰه والخوف منه في أعماق القلب، واستنهاض النفس نحو إرادة قوية وعزيمة فتية، حتى ينقاد الطبع إلى الشرع، وتطبق ما شارط العبد ربه على أدائه.

٨- هناك أساليب خاصة في مجاهدة النفس مثل حرمانها

من بعض الحلال من الطعام، واللغو من الكلام، والاسترسال في المنام، والعزلة عن الأنام، حتى تصل إلى مرحلة الفطام، فيقودها صاحبها إلى ما يرضي الرحمن.

الفهرس